فقدان الشعور المصحوب بسلوك اندفاعى لا إرادى[1]
نتيجة صدمة نفسية

بقلم

عبد المنعم الملجى
الأخصائى النفسى بمكتب الخدمة لمحكمة الأحداث
مدرس علم النفس بجامعة إبرهيم

يستطيع الإنسان الناضج من الناحية الانفعالية والعقلية أن يقاوم ما يتنازعه فى ظروف الحياة العادية من رغبات عدوانية ، ويتحكم فيها . ولكن نفس الشخص إن أصيب بتوتر نفسى نتيجة موقف من مواقف الحياة المثيرة أو عدة مواقف متلاحقة ، ضعفت قدرته على مقاومة الرغبات العدوانية . وقد لا تؤدى حالة التوتر إلى انبثاق مثل هذه الرغبات ولكنها تجعل الشخص عرضة لذلك إن أصيب بأية صدمة نفسية طارئة . فمن شأن التوتر أن يبدد من الطاقة النفسية التى يستخدمها المرء فى التصرف فى ظروف الحياة الواقعية وفى مقاومة رغباته الغريزية اللاشعورية ، فإذا كان المرء واقعاً تحت وطأة هذا التوتر النفسى ثم فوجىء بصدمة نفسية بسبب حادث مفاجىء انهارت قوته على المقاومة واندفع فى تصرفاته على نحو أعمى لا ضابط له ولا هدف وأصبح سلوكه سلوكاً اندفاعياً آليا صرفاً .

فالتوتر النفسى فى ذاته (أى حالة الصراع النفسى بين رغبات متعارضة) قد لا يسبب المرض أو الجنون أو الاضطراب السلوكى إلا إذا تعرض الشخص لصدمة نفسية تنهار أمامها آخر معاقل المقاومة الشعورية : ولكن يجب أن نذكر أن الصدمة وحدها لا تكفى لإحداث هذه الأعراض السالفة ومن بينها الاضطراب السلوكى ، بل لا بد أن يكون الشخص ذا صفات نفسية قديمة نشأت خلال التربية الخاصة وحوادث الحياة السابقة ، أو أن يكون – كما أسلفنا –

(١) صورة تقرير رفع فى إحدى القضايا المعروضة على المحكمة العسكرية العليا .

عانى فترة من الزمن حالة من الصراع والتوتر النفسى الشديد . فالعوامل التى تهيئ الشخص للانهيار أمام الصدمة النفسية المفاجئة ، إما عوامل قديمة رسخت فى النفس أو عوامل مكتسبة حديثاً : كأن يكون الشخص احتمل عبئاً طويلا ، أو آلاماً متعددة ، أو كبتاً زائداً لانفعالاته . وتزيد قابليته للانهيار إن كان ذا حساسية زائدة ومثالية أخلاقية أو تزمت وجمود ، فمن شأن هذه الصفات أن تمعن فى الكبت ، ومن ثم أن تزيد حدة التوتر النفسى .

ومن نتائج الصدمة فضلا عن انهيار مقاومة الذات الشعورية للرغبات المكبوتة الانفصال عن الواقع انفصالا يظهر فى أحد الأشكال الآتية :

١ — أمنيزيا هستيرية : أى فقدان مؤقت للذاكرة ؛ فينسى الشخص كل ما يتعلق بماضيه ، وقد ينسى اسمه واسم عائلته ويصبح ذهنه خالياً من أمور كثيرة تتعلق بماضيه المؤلم .

٢ — شلل هيستيرى : إذ يتعطل عضو أو أكثر عن أداء وظيفته .

٣ — بعض حالات الجنون التى ينسبها العامة ، خطأ ، إلى حادث مؤلم ؛ ولكن الحادث إن هو إلا سبب مباشر أو صدمة نفسية مفاجئة أبرزت الكامن من العوامل النفسية المحتبسة .

٤ — بعض الجرائم : فقد يرتكب الشخص نتيجة الصدمة المفاجئة جريمة على نحو اندفاعى ، ودون سبق إصرار ، سواء كان ذلك الشخص كبيراً أو صغيراً ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك جريمة القتل التى حللها الأستاذ Broadwin, I.T. فى بحثه المنشور فى مجلد Psychoanalysis To Day تحت عنوان (جرائم الأحداث) . وقد ارتكبها طفل ، إذ أطلق الرصاص فجأة على رجل اعترض سبيله ، وقد اعتبرت الجريمة نتيجة صدمة نفسية مفاجئة أصابت شخصاً ظل مدة طويلة واقعاً تحت وطأة التوتر النفسى . والمجلد مطبوع فى نيويورك سنة ١٩٤٤ فى International University Press

ويقول العالمان لانديس وبولز فى كتابهما

Landis & Bolles : Abnormal Psychology New-York 1949.

صفحة ٢٩ ما يلى عن الصدمة النفسية :

« بعض الناس الذين يتعرضون فترة طويلة من الزمن لقنابل العدو ، أو للغارات الجوية ، والزوجات اللاتى يفاجأن بخبر خيانة الأزواج ، والأطفال الذين

يُعاملون معاملة صارمة من آباء متزمتين ، كثير من هؤلاء يكونون عرضة لنوبات انفعالية تتملكهم على نحو فجائى بسبب المواقف التى تكتنفهم . على أن معظم هؤلاء الأشخاص يبرأون من الأعراض الحادة التى انتابتهم بمجرد انتشالهم من الموقف الخاص ، ويصبحون بمنجى من التصرف تحت ضغط الموقف . ومن المعلوم أيضاً أن القابلية للتوتر النفسى هى فى حالات كثيرة ترجع إلى استعدادات سابقة . فقد ينهار شخص لصدمة نفسية فى حين لا ينهار شخص آخر أمام صدمة مكافئة لها » .

وفى صفحة ٩٤ :

« فى أية نوبة هستيرية ، قد يسقط المصاب ويمر بسلسلة من التقلصات والتشنجات ، ولكن ذلك يتم دون أن يجرح نفسه فى السقوط (فيسقط بخفة أو على شىء ناعم) . هذا ، ولا تحدث هذه النوبات إلا فى حالة وجود أناس آخرين audience .

وهنالك أعراض هستيرية أخرى تأخذ شكل فقدان الذاكرة (أمنيزيا) ومختلف حالات الغيبوبة Trance ، وما يحدث فى هذه الحالات هو تعطل الشعور العادى loss or inhibition of consciousness ، فيسلك الشخص على نحو أوتوماتيكى . وقد يتملك الشخص فى هذه الحالة فكرة ، أو مجموعة من الأفكار تستبعد كل ما عداها من أفكار .

وعند ما يفيق من هذه الحالة ، لا يستطيع أن يذكر شيئاً مما وقع أثناءها من حوادث . وإذا اقترنت هذه النزعة إلى السلوك مسلكاً أوتوماتيكياً برغبة لاشعورية (كأن يهرب أو يعتدى أو ينتقم إلخ . . . .) فإن هذه الرغبة هى التى تسيره أثناء الحالة . مثال ذلك : إن كانت به رغبة لاشعورية للهرب فإنه قد يبتعد عن منزله أميالا عدة دون تذكر لاسمه أو للمكان الذى قدم منه . على أن فترات فقدان الذاكرة هى فى العادة فترات قصيرة يعود بعدها المصاب إلى حالته العادية .

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نحلل بعض الأمثلة الواقعية بل نكتفى بالإشارة إلى بحوث Morton Prince التى تعتبر سجلا حافلا بالأمثلة والحالات الواقعية ، وكلها تبين أن أية صدمة نفسية مفاجئة قد تؤدى ببعض الأشخاص العاديين إلى تغير مفاجىء فى السلوك الوقتى ، أو فى الشخصية بأسرها بشرط أن يكونوا من قبل فى حالة من الصراع النفسى الذى يُضعف قدرة الشخص على مجابهة مواقف

الحياة والتوافق مع الواقع ، وفى نفس الوقت تضعف مقاومة الذات الشعورية لآثار الصدمة النفسية أو للدوافع اللاشعورية المكبوتة .

والتغيير الطارئ على السلوك قد يستغرق فترة قصيرة من الزمن وقد يدوم وقتاً يطول إلى شهور عدة ، وأحياناً يحدث تقلب دورى بين حالتين من حالات النفس ، كما يحدث فى حالات ازدواج الشخصية duality of personality ؛ وما حالة ازدواج الشخصية سوى صورة عنيفة للتغير المؤقت الذى يحدث فى حالة الاندفاع فى نوبة تهيج « مانيا » أو « هستيريا » أو « إغماء » إلخ . . . ويكون الشخص بعد الحالة عاجزاً عن تذكر ما مر به فى أثناء النوبة ، وأحياناً قد يشعر بها كما لو كانت حلماً منسياً ، أى أن المرء أثناء النوبة قد يفقد الشعور ، وتجرى أعماله واستجاباته فى مستوى لاشعورى .

ومما يؤيد ذلك ما ورد فى المرجع التالى

M. Prince, "Clinical and experimental Studies in Personality". Cambridge, **1929**.

« دراسات إكلينيكية وتجريبية فى الشخصية تأليف مورتون برنس »

* * *

ويجب أن نراعى أن عنف الصدمة النفسية لا يقاس بمظهرها الاجتماعى الخارجى ، بل بمدى تهيؤ نفس المصدوم لتقبلها . فعنفها يكون قياساً إلى الشخص نفسه . فرب اشارة تافهة تكون بمثابة صدمة نفسية عنيفة تهز كيان الشخص إن كان يعانى توتراً نفسياً فترة طويلة ، أو كان قد احتمل إجهاداً عقلياً مستمراً كما يحدث لبعض العلماء إذ ينسون أنفسهم فى غمار العمل ، أو ظل نهباً للخوف والتهديد المستمر بالموت أو الفضيحة ، أو ظل صابراً مدة طويلة على مظالم أو خيانات من شخص محبوب ، أو احتمل آلاماً فى أعقاب جرح أو عملية جراحية ، أو بذل جهداً مستمراً فى كبت الحقد والرغبة الجارفة فى الانتقام . . . . فى كل هذه الحالات يكون الشخص عرضة للانهيار الدائم فى حالة من الجنون ، أو المرض ، أو الشلل الهستيرى ، أو التغير المفاجىء فى السلوك ، حتى إذا ما وقع حادث مثير للانفعالات ، أيّا كانت تفاهته فى نظر الشخص السليم ، فلا يكون الحادث هو المسئول وحده عن حالة الانقلاب هذه بل بمثابة الضغط على الزناد ، الذى يطلق البارود الذى كان معبأ من قبل ، كذلك تكون الصدمة النفسية ظرفاً كفيلا بإطلاق الشحنة الانفعالية المكبوتة ؛ وذلك وحده يفسر لنا عدم

التناسب (الذى يبدو للمشاهد المحايد الذى ينظر نظرة سطحية) بين عنف الاستجابة وتفاهة المثير . ويقرر Stout فى كتابه

Manual of Psychology, 3rd edition, p. 706.

« أنه عند ما ينشأ فى الفرد دافعان يرمى كل منهما إلى غاية مناقضة للأخرى ولم يكن الشعور بالنفس موجوداً ، فإن أحد الدافعين يسيطر على الآخر على نحو يكاد يكون آلياً » .

ومن الأعراض المرضية النفسية الشائعة : « التهيج الهـذيانى» delirious excitement و «تغيم الشعور » clouding of consciousness ، الأمر الذى ينشأ عادة فجأة وهو يتفاوت شدة من فرد إلى آخر ، وهو عادة مندمج فى اضطرابات نفسية أخرى مثل المانيا ، والانقباض والقلق ، والخلط confusion والنفور المفاجئ من الأقارب ، والهلوسة ، واضطرابات الكلام . وقد يعقب هـذه الحالة إحدى الأمور الآتية : —

١ — برء سريع ٢ — حالة مانيا ثم برء تدريجى ٣ — حالة انقباض ثم برء فجائى ، أو حالة انقباض طويلة ٤ — جنون الفُصام (شيزوفرينيا) .

عبد المنعم المليجى